تصـــدير

بقلم الأستاذ الدكتور مصطفى زيور

يسعدني أن أقدِّم للقارىء العربي كتاباً ينتمي مؤلِّفه إلى مدرسة علم النفس بجامعة عين شمس والتي يعرف المختصون أنَّها تتميز بخصائص تنفرد بها عن غيرها من المدارس. ذلك أنَّ هذه المدرسة لم تأت ببدع من حيث التضافر بين علم النفس التقليدي الذي يستند إلى القياس والتجريب، وبين علم نفس الأعماق - أي التحليل النفسي - وما يزودنا به من قضايا ووقائع مما يجتاز معه حدود الفرد ويترامى البصر من نافذته إلى آفاق تصل إلى طفولة الإنسان، لا بل إلى فجر تاريخ الإنسانية وتطور مراحلها جميعاً.

والواقع أنَّ علم نفس الأعماق يعمل بمنهج خاص به هو الذي يمكِّن من الوصول إلى مستويات عميقة في علم النفس لا يستطيع منهج آخر أن يدركه بمناهج علم النفس التقليدية (أعني القياس والتجريب).

وإنَّه لخطأ إبيستمولوجي صارخ إذا ما أردنا أن نسبر غور هذه الأعماق بمنهج لا يصلح لها، والخطأ الذي يقع فيه بعض علماء النفس هو تصورهم للموضوعية على نحو يكاد أن يكون ميتافيزيقياً من حيث إنَّهم يفترضون أنَّه يصلح لكل شيء في البحث ما دام - هو - مشابهاً للبحث في طرائق العلوم الفيزيائية.

ومع ذلك فإنَّ البحث في ميادين العلوم الفيزيائية ما تقدَّمت فروعه إلاَّ لأنَّ كلاً منها قد فاز بمنهج ملائم لموضوع بحثها، فهل كنَّا نستخدم التليسكوب للبحث عن البكتيريولوجيا، أو هل كنَّا نستخدم الميكروسكوب للنظر ولفحص عالم الفلك، وهل هو بخافٍ أنَّ ما استطاعه علم البكتيريولوجيا من تقدم حاسم لم يتأت إلاَّ بعد اختراع الميكروسكوب ثمَّ الإجراءات المعملية وابتداعات باستير في

ميدان البكتريولوجيا. والأمر بالمثل في كل علم من العلوم. إذ لا بدَّ من منهج خاص يتناسب وموضوع البحث في هذا الميدان الخاص، فالقول بأنَّ هناك منهجاً وحيداً علمياً يطبق في كل بحث مهما اختلف ميدانه إنما يفترض افتراضاً ميتافيزيقياً ـ دون أن يدري أنَّه يقول بهذا ـ إنَّه قد خرج من ميدان العلم إلى ميدان الميتافيزيقا.

ولنأت إلى سؤال آخر، هل تستخدم وسائل البحث في علوم مثل الكيمياء والفيزياء والأحياء عمليات منهجية هي هي في كل من هذه العلوم.

إنَّ القول بهذا يعني أننا نفرض على كثرة التجربة نمطاً واحداً نعرفه في ميدان واحد صالح له، ومن هنا أيكون عالم الإنسان هو هو عالم الفيزياء حتى نتشبث بمناهج البحث في العلوم المضبوطة «الفيزياء وما إليها» ونفرضه فرضاً على مجال الإنسان بما هو إنسان، وهل يصح في الأذهان أن ننقل نتائج البحوث في ميدان الفسيولوجيا، بما في ذلك الفعل المنعكس الشرطي، على الإنسان الذي وجد بما هو عليه من حيث إنَّ التراكمات الكمية جعلته يخطو نحو الاختلاف الكيفي... وليس يخافِ على أحد أنَّ أول شاغل للباحث في معظم البحوث التي تتم في عالم الغرب والشرق إنَّما هو الظفر بمنهج يلائم موضوع بحثه، وهو ما يحدث فعلاً لا في العلوم الإنسانية فحسب إنَّما في العلوم الفيزيائية أيضاً، وما سر اكتشاف أعماق النفس على يد فرويد إلاَّ لأنَّه وقع بحدس نافذ على منهج التداعي الطليق. ولقد دأبت مؤسسات علمية كبيرة في كل من أمريكا والعالم الغربي في أوروبا على محاولة التأليف بين قضايا علم النفس التقليدي وقضايا علم النفس المستند إلى التحليل النفسي، بل أضافوا إلى ذلك أيضاً قضايا علم الأنثروبولوجيا المعاصرة، فكان لهم من مجموع هذه القضايا المتضافرة من هذه الميادين الثلاثة ما استفاد كل منهم من بحوث الميدانين الآخرين، وهذا هو طابع مدارس ييل وهارفارد وغيرها. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، الجهد الذي بذله هنري موريه في الاستفادة من كل من علم النفس التقليدي من جهة، وعينه لا تغمض في الآن نفسه عن قضايا التحليل النفسي فكان من أثر ذلك اختباره المشهور «اختبار تفهم الموضوع».

وفي رأينا أنَّ الدراسة المتعمِّقة للإنسان بما هو إنسان لا بدَّ وأن تبدأ بأسلوب البحث في التحليل النفسي حتى إذا ظفرنا بقدرٍ كاف من المعارف نخضعها

لأسلوب التحليل العاملي وغيره من أساليب البحث في القياس النفسي والتجريب للتحقق من صحة القضايا التي سبق الكشف عنها بمنهج التحليل النفسي ـ أو من بطلانها، بوصفها فروضاً نصوغها على نحو إجرائي، وهو ما أنجز بعضه ريمون كاتل ومن نحا نحوه.

وقد نشرت في الآونة الأخيرة بحوث كثيرة اختطت لنفسها هذه الخطة، وأمام ناظرينا بحوث «ريمون كاتل» وغيره بعد أن أضفوا على قضايا علم نفس الأعماق تعريفات إجرائية مناسبة للتحقق بالتحليل العاملي.

ومن هنا يبين لنا أنَّ المؤلف قد فطن كما فطن زملاؤه في نفس المدرسة إلى وظيفة كل من أدوات البحث في علم النفس، فمنهج البحث في أعماق النفس يقتضي استخدام كل التكنيكات التي أبان الزمن الطويل عن فائدتها وضرورتها، ثمَّ تأتي بعد ذلك مرحلة التجريب والقياس بأساليبهما المختلفة وعلى الأخص التحليل العاملي لكي تقيم الدليل على صحة هذه الفروض أو تفنيدها.

وليس غريباً والحالة هذه أن يبدأ المؤلف كتابه بفصل عن مناهج البحث بعامة في علم النفس والتحليل النفسي بخاصة: ثمَّ يعرِّج بعدها على العديد من الميادين التي يهتم بها علم النفس، وهو في ذلك كله ابن لمدرسة عين شمس تفخر به ويفخر بها، وها هو يقدِّم لنا مواضع يفيد منها كل راغب في الإحاطة بميادين البحث في علم النفس، باذلاً من الجهد الأكاديمي الصادق والأمانة العلمية اللتين اتَّصف بهما دوماً، ما يجعل عمله جديراً بالقراءة، وليس أدلُّ على دأبه واهتمامه بمادته من تطبيقه لاختبار وكسلر ـ بلفيو على عينة من الشعب المغربي وتقنينه للاختبار هناك إبان عمله مدرساً بجامعة الرباط مما جعله سفيراً طيباً لبلده وعلمه ومدرسة عين شمس.

مصطفى زيور
دكتور في الطب
رئيس عيادة الأمراض النفسية
بكلية الطب بجامعة باريس سابقاً
أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
عضو الجمعية الدولية للتحليل النفسي